

الاداء التفسيري عند الإمام الكاظم "عليه السلام"

(آيات العقائد أنموذجاً)

عدي جواد علي الحجار*

المقدمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد الصادق الأمين، وعلى أهل بيته الطاهرين عدل كتاب الله وأعلام دينه وخزان علمه وتراجمه وحيه.

وبعد.. فإن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، والمعين الصافي للثقافة الإسلامية، التي اختارها الله تعالى لسمو الإنسان وسعادته في النشأتين، وقد تعاهد أهل البيت عليه السلام وفقاً لتكليفهم الإلهي لقيادة الأمة؛ القرآن الكريم تلاوة وحفظاً وتفسيراً يكشف ما فيه من مراد الله تعالى، وصيانة له عن أيدي العابثين وانتحال الجهلة والمبطلين، ومن هنا نجد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وعلى الرغم مما تعرض له من اضطهاد وإرهاب، قد أولى عناية كبرى لتفسير القرآن الكريم وبيان ما فيه من عقائد تُحصّن المسلمين ضد الهجمة التي يشنها أعداء الدين ولاسيما قد حفل عصره بتيارات فكرية وثقافية عاتية انتجت التراكمات العقائدية المنحرفة فضلاً عن التوجهات السياسية التي تبتغي خلق الفتن لإبعاد المجتمع عن التعرض للسلطة الحاكمة، وهذا يستدعي ممن هو عدل الكتاب وقرينه وهو العالم بكل آياته، والمحيط بخفي أسرارهِ ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، أن يبين للناس المسار الصحيح من خلال آيات القرآن الكريم، وكان الوارد من تفسير الإمام الكاظم عليه السلام؛ يمثل أداءً تفسيرياً لكثير من السور والآيات، ويتجلى ذلك من خلال إطلالة في الأحاديث الواردة عنه في هذا المضمرة عليه السلام، إلا إن الباحث كثف البحث في تفسير موضوع آيات العقائد لما وجده من إمكان نهوضها لتشكيل تفسيراً موضوعياً برأسه، مكتفياً بالوقوف على شواهد منها، واقتضت طبيعة البحث توزيعه على النحو الآتي:

* دكتور في كلية التربية الأساسية / جامعة الكوفة .



الوظيفة التفسيرية للإمام المعصوم عليه السلام، الأداء التفسيري عند الإمام الكاظم عليه السلام، الشواهد التفسيرية، تفسير الآيات العقائدية، التوحيد، النبوة، الإمامة، المعاد.

دواعي وجوب الوظيفة التفسيرية للإمام المعصوم عليه السلام

لا تنفك الوظيفة التفسيرية للقرآن الكريم عن العترة الطاهرة فهم ورثة الكتاب وحملة علم الرسول ﷺ، بناءً على قوله ﷺ: "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله عز وجل حبل ممدود، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض"^(١). هذا يثبت أن القرآن الكريم يقترب منه من العترة من يعرف التنزيل والتأويل علماً يقيناً، يُخبر عن مراد الله عز وجل كما كان رسول الله ﷺ يخبر عن المراد، ولا يكون معرفته بتأويل الكتاب استنباطاً ولا استخراجاً كما لم تكن معرفة الرسول ﷺ بذلك استخراجاً ولا استنباطاً ولا استدلالاً ولا على ما تجوز عليه اللغة وتجري عليه المخاطبة، بل يخبر عن مراد الله ويبين عن الله بياناً تقوم بقوله الحجة على الناس^(٢)، فتفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام للقرآن الكريم وظيفة شرعية تتكفل بالبيان والتفصيل، فموضعهم منه كموضع النبي ﷺ من القرآن الكريم موضع بلاغ وبيان، فهم باب علمه، ومستودع حكمته، والمؤدون عنه، وفي ذلك تجسيد لقول رسول الله ﷺ: "يحمل هذا الدين في كل قرن عدول، ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد"^(٣). وذلك مخصوص بأهل البيت وهم المصدق الأفاضل والفرد الأكمل، ويتضح هذا في ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: (ما نزلت على رسول الله آية من القرآن، ولا شيء علمه الله تعالى من حلال أو حرام، أو أمر أو نهى، أو طاعة أو معصية، أو شيء كان أو يكون، إلا وقد علمنيه وأقرانيه، وأملاه علي وكتبته بخطي، وأخبرني بتأويل ذلك وظهره وبطنه، فحفظته ثم لم أنس منه حرفاً. وكان رسول الله ﷺ إذا أخبرني بذلك كله يضع يده على صدري، ثم يقول: اللهم املاً قلبه علماً، وفهماً، ونوراً، وحلماً، وحكماً وإيماناً وعلمه ولا تجهله، واحفظه ولا تنسه. فقلت له ذات يوم: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هل تتخوف علي النسيان؟ فقال: يا أخي، لست أتخوف عليك النسيان ولا الجهل، وقد أخبرني الله تعالى أنه قد استجاب لي فيك ولشركائك الذين يكونون بعدك. قلت: يا رسول الله ومن شركائي؟ قال: الذين قرن الله طاعتهم بطاعته وبطاعتي. قلت: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٤). قلت: يا نبي الله، من هم؟ قال: هم الأوصياء بعدي، ولا يتفرقون حتى يردوا علي الحوض، هاديين مهديين، لا يضرهم



كيد من كادهم، ولا خذلان من خذلهم، هم مع القرآن، والقرآن معهم، لا يفارقونه ولا يفارقهم، بهم تنتصر أمتي وبهم يمطرون، وبهم يدفع البلاء، وبهم يستجاب لهم الدعاء. قلت: يا رسول الله، سمهم لي. قال: أنت يا علي، ثم ابني هذا، ووضع يده على رأس الحسن، ثم ابني هذا، ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابنه سميك يا أخي سيد العابدين، ثم ابنه يسمى محمداً، باقر علمي، وخازن وحي الله، ... ثم تكلمة اثني عشر إماماً من ولدك إلى مهدي أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت قبله ظلماً وجوراً^(٥). والإمام الكاظم عليه السلام من هذه السلسلة الطاهرة المنيفة، فتحمل مهام المنصب الإلهي وأدى وظيفته في قيادة الأمة وبيان المراد من الخطاب الإلهي في القرآن الكريم. بهذا نجد إن داعي تفسير النص القرآني يعدّ تكليفاً إلهياً للأئمة عليهم السلام لأنهم امتداد الرسول وهو مناط التكليف ولأنهم الأعلام على وجه الإطلاق بمكنونات الخطاب السماوي المعجز.

الأداء التفسيري عند الإمام الكاظم عليه السلام

تحمل الإمام الكاظم عليه السلام مسؤوليته الرسالية على الرغم مما مر به من ظروف عصيبة تمثلت بسلب حرية الحركة والاتصال، والتضييق عليه بشتى الأنواع، للحد من نشر رسالة السماء التي أوكلها الله إليه وأناط مسؤوليتها به، كما أخبر الرسول الأكرم بذلك، فبين وجوب التبليغ والبيان من جهة، والتضييق من جهة أخرى، كان استنطاق القرآن الكريم وبيان مجمله وكشف دلالاته، وتوضيح أحكامه، والإخبار عن عجائبه، وبيان فضائله، والإرشاد إلى العبر في قصصه، مهمة سامية تتجلى في ما أفصح عنه الإمام بقوله: (وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان، وتحى به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وإن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلا أن يأذن الله به مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون، جعله الله لنا في أم الكتاب، إن الله يقول: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٦) "ثم قال: "﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٧) " فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء^(٨)، وببإد أن الإمام لم يكن مخلى السرب، آمن الجريرة، وليس لديه من النفوذ ما يجعله في وضع مستقر، وليست له الحرية في التواصل مع عموم المجتمع، وبالرغم من هذا كله لم تكن تلك القيود والمضايقات التي تعرض لها ولا موجات الإرهاب التي واجهها لتعيق مسيرته الرسالية السامية، فإن جهاده في خضم هذا الجو الخانق لم يكن لينقطع، فقد كانت رسائله وإجاباته ووصاياه لتصدر عنه وهو ظلم المطامير وغياهب السجون، فيتلقاها تلامذته وشيعته متعطشين لسماعها وامثالها، ثم نشرها وإذاعتها والحرص على حفظها لتبلغ الأجيال فيما بعد، فقد (كان جماعة من خاصة أبي الحسن "ع" من أهل بيته وشيعته يحضرون مجلسه و معهم في أكمامهم ألواح



آبنوس لطاف و أميال فإذا نطق أبو الحسن ع بكلمة أو أفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا منه في ذلك^(٩)، وبذلك حفظ تلاميذ الإمام وأصحابه الجَمَّ من أقواله الشريفة، وقد روى عنه ما يناهز ثلاثمئة شخص أو يزيد^(١٠)، ومن بين هؤلاء من امتاز بالفضل والعلم والإمانة، فقد أجمع الرواة على تصديقهم وقبول رواياتهم عن الإمام، كيونس بن عبد الرحمن، وصفوان بن يحيى، ومحمد بن عمير، وعبد الله بن المغيرة، والحسن بن محبوب، وأحمد بن محمد. وقد أمضوا حياتهم في الصمود أمام السلطة الغاشمة، وعملوا على حفظ ما ورد عن الإمام من تفسير القرآن الكريم وسائر علوم القرآن والأحاديث الإسلامية الصحيحة لتصل إلى الأجيال اللاحقة^(١١). وقد جمعت تلك الكلمات النيرة في نسخ ومسانيد، منها:

١- مسند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

وهو مجموعة من الروايات المسندة المرفوعة إلي النبي صلي الله عليه وآله وسلم، التي أسندها الإمام الكاظم عليه السلام بطريق آبائه عليهم السلام. رواها عنه موسى بن إبراهيم، أبو حمران المروزي، البغدادي (ت بعد ٢٢٩هـ)، قال: إنه سمعها من الإمام عليه السلام عندما كان الإمام في سجن هارون العباسي^(١٢).

٢- كتاب اخبار موسى بن جعفر عليه السلام

لأبي احمد احمد بن عزيز بن يحيى بن احمد بن عيسى الجلودي الازدي البصري (ت ٣٣٢هـ)^(١٣).

٣- نسخة موسى بن جعفر عليه السلام

لعلي بن حمزة بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام^(١٤).

٤- نسخة موسى بن جعفر عليه السلام

لمحمد بن ثابت^(١٥).

٥- نسخة موسى بن جعفر عليه السلام

لمحمد بن زرقان^(١٦)

٦- نسخة موسى بن جعفر والرضا عليه السلام

لمحمد بن فضيل بن كثير الصيرفي الأزدي^(١٧)

وهناك الكثير من الكتب والرسائل والمسائل والوصايا التي حفلت بأحاديث الإمام العقائدية والفقهية والتفسيرية وغيرها مما يتكفل ببيان حاجة المكلف تجاه ربه ومجتمعه، وقد وصلت إلينا جملة منها وقد اثبتتها كتب الحديث والرجال، فمنها كتاب رواه محمد بن صدقة، العنبري، البصري، وكتاب رواه بكر بن الأشعث، أبو إسماعيل الكوفي، وكتاب رواه خلف بن حماد بن ياسر، الكوفي، ومسائل رواها علي بن يقطين، و مسائل: رواها الحسن بن علي بن يقطين، ورسالة، كتبها الإمام عليه السلام إلى علي بن سويد السائي [السابي]، ووصية الإمام لهشام بن الحكم^(١٨).

وفضلاً عن هذه المسانيد والكتب فقد انتظمت كتب الحديث الكم الكثير من أحاديث الإمام الكاظم عليه السلام، اشتملت على موارد كثيرة في تفسير القرآن الكريم تصدع بالأداء التفسيري الذي يمليه المنصب الإلهي للإمام وتتيحه النفحات القدسية المنبعثة من العناية الإلهية بهذه الإمامة، وقد انبرى الشيخ عزيز الله العطاردي لجمع ما ورد من أحاديث عن الإمام الكاظم عليه السلام لتنتظم في كتاب أسماه "مسند الإمام الكاظم"^(١٩) وقد قسم الأحاديث فيه بحسب موضوعاتها، وشكلت أحاديث تفسير القرآن الكريم قسماً من الكتاب، تناولت الأبواب الاعتقادية، والفقهية، والقصص القرآني، والإرشاد، وفضائل القرآن، بيد أن الباحث يرى أمكان دخول جملة الأحاديث التي اندرجت تحت أقسام أخرى ضمن قسم التفسير، إذ ورد عدد من تلك الأحاديث مبيناً لمراد الله تعالى في كتابه العزيز، أو مما يستشهد به من الآيات لحكم فقهي أو غيره، وعلى ذلك يمكن إلحاقه بالتفسير لتكفله كشف المراد من الآيات على نحو التطبيق.

الشواهد التفسيرية

تضمنت الروايات الواردة عن الإمام الكاظم عليه السلام شواهد تفسيرية كثيرة يمكن أن تنهض بوصفها مجموعة تفسيرية يمكن ترتيبها بحسب السور تارة، وبحسب المواضيع تارة أخرى لتشكل تفاسير موضوعية متنوعة، اختار البحث بعض هذه الشواهد، منها:

تفسير الآيات العقائدية.

تبلورت اتجاهات عقائدية مختلفة اتخذت خطوطاً منحرفة عن الفكر الإسلامي القويم، نتيجة الموجات الفكرية التي ترمي إلى تضليل عامة الناس لبلورة ألوان من الثقافات لم يعهد لها المجتمع الإسلامي نظيراً في العصور السالفة، وقد اتجهت تلك الموجات إلى الجانب العقائدي من واقع الحياة، ليتخض عنها فرق



ومذاهب باطلة، مما دعا الإمام الكاظم عليه السلام، بوصفه القائد الحقيقي للأمة بدحض تلك الأفكار المنحرفة بفعل البيان التفسيري لجملة من الآيات أو الاستشهاد بها لإزاحة الشبهات التي تتعارض والفطرة السليمة، فمنها في توحيد الصفات الإلهية، وتنزيه الباري جلّ وعزّ، ومنها في الاعتقاد بالقرآن، ومنها في أصل النبوة ونبوة الخاتم عليه السلام، ومنها لإثبات الولاية والإمامة، ومنها في ما يتعلق بالمعاد. وسيرد هذا تباعاً.

التوحيد

إن الله تعالى هو الخالق المستوجب لشكر نعمة الإيجاد وبذلك يستحق العبادة الخالصة، وأول معرفة ذلك تقتضي التوحيد، فإن الفطرة السليمة تنبئ عن موجود عظيم خالق مدبر، وعظمة أفعاله تفصح عن تفردّه بالفعل والخلق والتدبير، لا يمكن أن يتجاوز الإنسان الممكن ما أخبر به الواجب من أسماء وصفات لا متناهي إحاطة الممكن بالواجب، فلا بد من التزام ما أخبر وامتنال ما أمر، وقد أوضح لنا الأئمة عليهم السلام أنه جاء في القرآن الكريم بيان توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، ولا يمكن تجاوز ذلك، بل عليه مدار العبودية والتوحيد وتعامل العبد مع ربه سبحانه. ومن تلك الروايات ما جاء عن أبي الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وهو ما رواه الصدوق (ت ٣٨١هـ): (عن محمد بن أبي عمير، قال: دخلت على سيدي موسى بن جعفر عليهما السلام، فقلت له: يا ابن رسول الله علمني التوحيد. فقال: يا أبا أحمد لا تتجاوز في التوحيد ما ذكره الله "تعالى ذكره" في كتابه فتهلك، واعلم أن الله تعالى واحد، أحد، صمد) (٢٠).

لقد أخذ الإمام عليه السلام، ببيان التوحيد، وكون التوحيد الصحيح لا بد من أن يتسق وما نطق به القرآن الكريم، وإلا فقد يشط الفكر إلى ما يفضي إلى التهلكة، وعلى ذلك نرى أن الإمام عليه السلام يوقف السائل على لمعات تفسيرية من سورة التوحيد، فالأحد الصمد تفيد كونه تعالى: (لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً، وإنه الحي الذي لا يموت، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والحليم الذي لا يعجل، والدائم الذي لا يبيد، والباقي الذي لا يفنى، والثابت الذي لا يزول، والغني الذي لا يفتقر، والعزیز الذي لا يذل، والعالم الذي لا يجهل، والعدل الذي لا يجور، والجواد الذي لا يبخل، وإنه لا تقدره العقول، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تحيط به الأقطار، ولا يحويه مكان، ولا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (٢١) (٢٢) فبين معنى الواحدية والأحدية والصمدية، من خلال ما تحمل من صفات تليق به تعالى، ثم أوضح أنه تعالى مع كونه لا تحويه الأقطار ولا تدركه الأبصار،



ليثبت وجوده تعالى بلا مشابهة، ومحيط من دون مجانسة، معضداً ذلك بما ورد في الكتاب العزيز، بقوله: (وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ^(٢٣)، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ ^(٢٤) وهو الأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، وهو القديم وما سواه مخلوق محدث، تعالى عن صفات المخلوقين علواً كبيراً ^(٢٥). وذلك تفسير للقرآن بالقرآن، وبيان جوامع التوحيد، من إثبات الصانع، وتوحيد الصفات، وتنزيهه تعالى عما لا يليق بساحته عزّت آلاؤه. وإنما أتى الإمام بتفسير سورة التوحيد لبيان أصول التوحيد (لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده... وتسمى سورة الأساس لاشتغالها على أصول الدين) ^(٢٦) لأن الإقرار بالتوحيد أصل أصول الدين فهو الأس الذي تقوم عليه العقيدة وتبنى عليه الفرائض وتعمل على وفقه الأنفس قناعةً و يقيناً وتتضمن بأن الله تعالى، وذلك ما أفاده الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) من تفسير السورة، بقوله: (واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم "لم يلد" لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا، وقد دل على هذا المعنى بقوله - أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة - "لم يولد" لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد: أي لم يماثله ولم يشاكله... وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعا على غاية إحكام واتساق وانتظام وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير، وقوله -أحد- وصف بالوحدانية ونفي الشركاء، وقوله -الصمد- وصف بأنه ليس إلا محتاجا إليه، وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه فهو غني، وفي كونه غنياً مع كونه عالماً أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه، وقوله -لم يولد- وصف بالقدم والأولية، وقوله -لم يلد- نفي للشبه والمجانسة) ^(٢٧)، وبهذا نلاحظ أن الزمخشري كأنه أخذ مضمون نصه التفسيري عن رواية الإمام عليه السلام بل استقى جملة من ألفاظها ليعتمدها في تفسيره.

النبوة.

إذا كان الاستدلال على النبوة وإثباتها يتم عن طريق البراهين العقلية، فإنه يمكن أن يتم الاستدلال عن طريق القرآن كذلك، وذلك لتمامية إثبات صدور القرآن الكريم عن الله تعالى، وما فيه من إخبار موثوقة قطعاً، ثم إن للقرآن خصوصية ليست لسائر المعجزات، لأنه معجز أبد الدهر لا في خصوص زمان النبي ﷺ، وبعد ثبوته يُستدل بما فيه على صدق النبوة المحمدية، ولا سيما أنه معجزة خالدة تناسب جميع العصور، وقد وردت في الرواية عن الإمام الكاظم عليه السلام، حوار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مع يهودي من يهود الشام وأخبارهم كان قد قرأ التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء عليهم السلام



وعرف دلائلهم، جاء إلى مجلس فيه أصحاب رسول الله ﷺ، إذ يروي الإمام الكاظم جملة من المعجزات والفضائل، والاستشهادات القرآنية التي تكتنف كشافاً دلاليّاً لبعض الآيات التي تثبت نبوة الرسول الأكرم ﷺ، وقد رواها الطبرسي في الاحتجاج عن الإمام موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن عليّ عليه السلام، وهي رواية طويلة يجتزأ البحث منها ما نصّه: (قال له اليهودي: فإن إبراهيم عليه السلام حجب عن نمرود بحجب ثلاث؟ قال علي عليه السلام: لقد كان كذلك، ومحمد صلى الله عليه وآله حجب عن أَرَادَ قتلَه بحجب خمس، فثلاثة بثلاثة واثنان فضل، قال الله عز وجل - وهو يصف أمر محمد صلى الله عليه وآله - : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾^(٢٨)، " فهذا الحجاب الأول ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾^(٢٩)، فهذا الحجاب الثاني ﴿أَغْشَيْنَاهُمْ لَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣٠)، فهذا الحجاب الثالث ثم قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٣١)، فهذا الحجاب الرابع ثم قال: ﴿فَهِيَ إِلَى الْآذِقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾^(٣٢)، فهذه حجب خمس^(٣٣). وفي هذه القطعة من الرواية تفسير موضوعي واضح، إذ جمع فيها آيات تتعلق بموضوع واحد. كما أن فيها بيان لسبب النزول الذي درج المفسرون على ذكره لإفادة المعنى وكشف المراد.

الإمامة

لقد حارب الأئمة عليهم السلام بدوافع سياسية إذ واجهوا هجمات شرسة اتخذت أساليب متعددة لطمس معالم مفهوم الإمامة وتكذيب ما جاء عن الرسول الأكرم في تثبيت دعائمها، فمنها ما اتخذ وسيلة التنقيف المضاد بأسلوب فكري، وقد كان عصر الإمام الكاظم عليه السلام مشحوناً بالتيارات والمذاهب الفلسفية والعقائدية، إذ انفجر هذا العصر بثقافات شتى ناتجة عن الانفتاح والتلاقح المعرفي مع حضارات أخرى وما تحمله الحقب الماضية من مخلفات الخوارج ودعاوى المرجئة وانعزال أهل القدر، وعوامل خارجية وداخلية أخرى، كان المحرك الأول لها النزوع إلى توطيد أركان السلطة من خلال تقريب جهة تتخذ من الفكر وسيلة لأثبات مدعياتها وتحقيق مآربها، على حساب أخرى؛ لذا نجد أن روايات كثير وردت عن الإمام عليه السلام الغاية منها توحيد الأمة ورأب الصدع ودحض السقيم من الأفكار المظلمة والمدعيات الباطلة، وترسيخ الفكر الإسلامي الصحيح الذي صدع به الرسول الأكرم ﷺ، وهذه هي وظيفة الإمام الشرعية الملقاة على عاتقه من الله تعالى، ومن تلك الروايات ما اتخذ طابعاً تفسيرياً يعتمد القرآن الكريم وتفسيره لبيان أصل الإمامة وترسيخه، فمن شواهد ذلك:



ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٣٤)، بدلالة قوله عزّت آلاؤه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾^(٣٥)، مؤكداً ذلك في تفسير الآية اللاحقة وهي قوله جلّ شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣٦). وشكل ذلك جمعاً دلاليّاً يفسر الآيات الكريمة ويكشف المراد مما جاء في الذكر الحكيم.

روى الكليني (ت ٣٢٩هـ) عن محمد بن الفضيل، عن أبي الحسن الماضي عليه السلام، أنه سأله عن (قول الله عز وجل: "يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ"، قال: يريدون ليطفئوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بأفواههم، قلت: "وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ"، قال: والله متم الإمامة، لقوله عز وجل: "فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا"، فالنور هو الإمام. قلت: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق" قال: هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه والولاية هي دين الحق، قلت: "لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" قال: يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم، قال: يقول الله: "وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ" ولاية القائم، "وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" بولاية علي، قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، أما هذا الحرف فتنزيل، وأما غيره فتأويل)^(٣٧).

ويظهر من هذا النص، مطالب تفسيرية عديدة منها:

١- النور في قوله تعالى: "وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ" مفهوم قرآني ومصادقه العام الإمامة التي أسس لها القرآن الكريم، وقد بينه الإمام في تفسيره للآية الكريمة.

٢- تشخيص مصداق الإمامة والولاية والذي يمثل دين الحق في الآية الكريمة، إذ يتجسد في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣- بيان استمرارية الإمامة إلى القائم عليه السلام، بدلالة الظهور على الدين كله في الآية.

٤- الجمع الدلالي بين الآيات للكشف عن المراد الحقيقي لله تعالى.

٥- تأسيس قاعدة تفسيرية تتمثل بالفرق بين التنزيل والتأويل، مع إمكان اندراجهما تحت التفسير، إذ إن السائل يسأله عن تفسير الآية، ثم يدلّه الإمام على أن هذا التفسير من نوع التنزيل لا التأويل؛ بأن التنزيل المراد الأولي، وهو يدلّ عليه الخطاب أولاً وبالذات، والتأويل ما يحتاج إلى كلفة وصرف الدلالة إلى ما هو ثانياً وبالعرض من باب الجري والتطبيق؛ فكان التفسير في هذه الآية تنزيل، ومن شواهد التأويل في تفسير الإمام ما رواه الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) عن علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: قلت: ما تأويل قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ

مَعِينٌ^(٣٨) فقال: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون^(٣٩)، قال السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤١٢ هـ): (قوله تعالى: " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ"، الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائرا ناضبا في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار. وهناك روايات تطبق الآيات على ولاية علي عليه السلام ومحادثته، وهي من الجري وليست بمفسرة^(٤٠)، أي ليست بالدلالة الأولية الظاهرة؛ بل هي دلالة تأويلية تحتاج إلى تفكر حتى ترك؛ بهذا نصل إلى أن جميع النصوص القرآنية التي دلت على مفهوم الإمامة إنما دلت عليه بقاعدة الجري والانطباق لا بمنطق التفسير الظاهر

المعاد

من المسائل المهمة التي أكدها القرآن الكريم "المعاد" ورسم صورة للعالم الذي ينتظر الإنسان وما يكتنفه من حساب دقيق وما يؤول إليه الأمر من الثواب أو العقاب، ما يدفع للتأمل في الحياة الأخرى، لينتبه على غفلته، ويتعرف إلى عظيم الخطر، فيقف على ما ينبغي أن يقدم من عمل، ثم إن الاعتقاد بالمعاد أصل مهم في كل الشرائع السماوية لما يمثل من العدالة الإلهية، لإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، فإن الله تعالى وعد المكلفين بمنح الإثابة على الطاعة بعد الموت وتوعد بالعقاب لمقتترف المعصية كذلك، بناءً على الإيفاء بالوعد والوعيد، وإن الله تعالى كلف بالأوامر والنواهي، فبمقتضى حكمته يبعث الخلق لإيصال الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية^(٤١). وقد يستصعب بعض الناس أمر المعاد بعد الموت واضمحلال البدن وتلاشيهِ، ويحتاج إثبات البعث والمعاد إلى دليل عقلي، وقد ينضم إليه دليل سمعي يثبت خصوص الجسماني منه، فقد تأتي الآيات القرآنية مخاطبة العقل الإنساني بما أتيح له من قدرة على التفكير، وقد وردت رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام ينقل فيه احتجاج الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بآية من القرآن الكريم، وهي قطعة من رواية الاحتجاج التي مرت في مبحث النبوة، إذ جاء فيها: (قال له اليهودي: فإن هذا إبراهيم قد بهت الذي كفر ببرهان نبوته؟ قال علي عليه السلام: لقد كان كذلك، ومحمد صلى الله عليه وآله أتاه مكذب بالبعث بعد الموت وهو: أبي بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركه ثم قال: يا محمد ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٤٢)؟ فأطلق الله محمداً بمحكم آياته، وبهتته ببرهان نبوته، فقال: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٤٣)، فانصرف مبهوراً^(٤٤)، وفي هذه الرواية شاهد تفسيري، تضمن استدلالاً عقلياً على إثبات المعاد:

١- حملت الرواية الشريفة تفسير "الرميم" بالعظم النخر، بإفادة ذلك من سبب النزول.



٢- كشفت دلالة الآيات على المعاد بصورة عامة والمعاد الجسماني بالخصوص لوروده في العظم الذي هو من الجسم.

٣- بيان تضمن الآيات توبيخ الانسان وتقريره على وقاحته في خصامه في مسألة المعاد، مستكبر ذلك على قدرته تعالى.

٤- إثبات المعاد بالاستدلال العقلي فإن بديهية العقل قاضية بأن من قدر الخلق ابتداءً فهو على الإعادة أقدر.

وللإفادة التفسيرية في أمر المعاد ملحظ مهم لما قالوا (إن العقل لا يستقل بإثبات المعاد البدني، كاستقلاله بإثبات الصانع تعالى ووحدته، بل إنما ثبت على وجه يقطع العقل بوقوعه بمعونة السمع)^(٤٥)، وذلك ما تكفلته الرواية الشريفة.

الخاتمة والتوصيات

ومما تقدم يجد الباحث أن النهوض بالعملية التشريعية على مستوى التبليغ والتوجيه والإرشاد كانت متعينة بشخص الإمام الكاظم عليه السلام وكان أدائه لها على الوجه الأكمل ؛ على الرغم مما كان يتصف به عصر الإمام من نشوء تيارات فكرية واتجاهات مذهبية وحركات سياسية طغى عليها طابع التعصب والانحراف عن النهج القويم للرسالة المحمدية السمحاء؛ ما جعل الإمام عليه السلام ينهج طريقاً يتخذ فيه من العقل والبرهان وسيلة للوصول إلى الاعتقاد الصحيح بالنسبة إلى المكلفين بلحاظ أن خطابه في مقام التبليغ كان موجهاً إلى عامة المكلفين بغض النظر عن المخالف والمؤلف ويجد المتتبع ذلك واضحاً في آيات الاعتقاد التي توافر البحث على ذكر بعض منها .

ويوصي البحث بجمع الروايات التفسيرية الواردة عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم "عليهما السلام" لنهوضها بكتاب تفسيري على النحو التسلسلي يشمل كثيراً من سور القرآن الكريم، أو على نحو التفسير الموضوعي في آيات العقائد أو آيات الأحكام، أو القصص القرآني، أو غيرها، فإن مراجعة ما جمع من الروايات المأثورة عن الأمام الكاظم عليه السلام؛ من خلال المسانيد والكتب والوصايا والأحاديث الموثقة في المجاميع الحديثية تفتح أفقاً رحباً في هذا المجال يأمل الباحث أن تأخذ مكانتها في المكتبة الإسلامية في مجال تفسير القرآن الكريم، لما لأهل البيت عليهم السلام من أهلية تمثل امتداداً للرسول الأكرم عليه السلام في كشف المراد من الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، فأنّ المشتغل بتفسير القرآن الكريم لا يسعه ترك ما ورد



عنهم عليهم السلام من تفسير، لما فيه من أصالة لفهم مراد الله تعالى وإدراك معاني كتابه الكريم، نسأله تعالى أن يهيئ للباحثين ذلك خدمة لدينه الحنيف والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

- ١- الصدوق-كمال الدين وتمام النعمة: ٢٣٥، والحديث يروى بمضمونه عند جمهور المسلمين، ظ: أحمد بن حنبل-مسند أحمد: ٣/ ١٤ + الطبراني-المعجم الصغير: ١/ ١٣١ + المتقي الهندي-كنز العمال: ٥/ ٢٨٩ - ٢٩٠.
- ٢- الصدوق-كمال الدين وتمام النعمة: ٦٤.
- ٣- رجال الكشي: ١/ ١٠-١١، وورد الحديث بطرق متعددة وألفاظ متقاربة في الكامل لابن عدي: ١/ ١٤٥-١٤٧.
- ٤- سورة النساء: ٥٩.
- ٥- الصدوق - الاعتقادات: ١٢١ - ١٢٢.
- ٦- سورة النمل: ٧٥.
- ٧- سورة فاطر: ٣٢.
- ٨- الكليني-الكافي: ١/ ٢٢٦.
- ٩- ابن طاووس - مهج الدعوات: ٢٢٠. انتشارات دار الذخائر قم، ١٤١١ هجرى قمرى
- ١٠- ظ: رجال الطوسي+باقر شريف القرشي- حياة الإمام موسى بن جعفر: ٢/ ٢٢٤.
- ١١- ظ: محمد حسين علي الصغير- الإمام موسى بن جعفر: ٨٨.
- ١٢- موسى بن إبراهيم المروزي أبو حمرا. كان معلم ولد السندي بن شاهك الذي أوكّل إليه سجن الإمام الكاظم، فأتاح ذلك للمروزي السماع من الإمام ما رواه عنه أبان فترة حبس الإمام في ذلك السجن، والكتاب من مخطوطات المكتبة الظاهرية في دار الكتب الظاهرية بدمشق. ضمن المجموع رقم ٣٤ مجاميع، والرقم العام ٣٧٧١، من مخطوطات القرن السادس، وقد حققه السيد محمد حسين الجلالى وطبعه في النجف الأشرف على الرونيو عام ١٣٨٩ هـ. ثم طبع في طهران عام ١٣٩٣ هـ. وطبعه مرة أخرى في شيكاغو عام ١٤٠١ هـ. وأعدت طبعه دار الأضواء في بيروت عام ١٤٠٦ هـ. كما وطبعته مؤسسة الوفاء - بيروت، سنة ١٩٨١ م ظ: النجاشي - رجال النجاشي: ٤٠٧ - ٤٠٨ + الطوسي- الفهرست: ٢٤٣ - ٢٤٤ + العلامة الحلي- إيضاح الاشتباه: ٢٩٦ + مؤسسة أهل البيت-مجلة تراثنا: ٢٠/ ٦٦.
- ١٣- ظ: النجاشي- رجال النجاشي: ٢٤٠-٢٤٤.
- ١٤- ظ: المصدر نفسه: ٢٧٢-٢٧٣.
- ١٥- ظ: المصدر نفسه: ٣٦٩.
- ١٦- ظ: المصدر نفسه: ٣٧٠.
- ١٧- ظ: المصدر نفسه: ٣٦٧.
- ١٨- ظ: الكليني-الكافي: ١/ ٥٦+١٢٤/٨+النجاشي- رجال النجاشي: ٣٦٤+١٠٩+١٥٢+٤٥+٢٧٣+٢٧٦.
- ١٩- طبع بثلاثة أجزاء، دار الصفوة، الطبعة الثانية- بيروت، ١٩٩٣ م.
- ٢٠- الصدوق-التوحيد: ٧٦.
- ٢١- سورة الأنعام: ١٠٣.
- ٢٢- الصدوق-التوحيد: ٧٦.
- ٢٣- سورة الشورى: ١١.
- ٢٤- سورة المجادلة: ٧.
- ٢٥- الصدوق-التوحيد: ٧٦ - ٧٧.
- ٢٦- الزمخشري-الكشاف: ٤/ ٢٩٨.
- ٢٧- المصدر نفسه: ٤/ ٢٩٨ - ٢٩٩.
- ٢٨- سورة يس: ٩.



- ٢٩- سورة يس: ٩.
- ٣٠- سورة يس: ٩.
- ٣١- سورة الإسراء: ٤٥.
- ٣٢- سورة يس: ٨.
- ٣٣- الطبرسي- الاحتجاج: ٣١٨.
- ٣٤- سورة الصف: ٨.
- ٣٥- سورة التغابن: ٨.
- ٣٦- سورة الصف: ٩.
- ٣٧- الكليني-الكافي: ٤٣٢/١.
- ٣٨- سورة الملك: ٣٠.
- ٣٩- كمال الدين وتمام النعمة: ٣٦٠.
- ٤٠- الميزان: ٣٦٥/١٩.
- ٤١- ظ: الشهيد الثاني-حقائق الإيمان: ١٥٩.
- ٤٢- سورة يس: ٧٨.
- ٤٣- سورة يس: ٧٩.
- ٤٤- الطبرسي- الاحتجاج: ٣١٨-٣١٧.
- ٤٥- الشهيد الثاني-حقائق الإيمان: ١٥٩.

المصادر

القرآن الكريم

- ١- مهج الدعوات ابن طاووس: علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد الحسني (ت ٦٦٤هـ) دار الذخائر - ١٤١هـ- قم.
- ٢- الكامل: في ضعفاء الرجال ابن عدي: عبد الله الجرجاني (ت ٣٦٥ هـ). تحقيق سهيل زكار. منشورات دار الفكر - ط٣- بيروت - لبنان ١٤٠٩ هـ.
- ٣- مسند احمد أحمد بن حنبل: احمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني(ت ٢٤١هـ). منشورات دار صادر. بيروت. لبنان.
- ٤- حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) باقر شريف القرشي دار الكتب العلمية - ط٢- ١٣٨٩ هـ - قم.
- ٥- الكشف، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد (ت ٥٣٨هـ). تحقيق محمد عبد السلام شاهين- دار الكتب العلمية- ط٣- ١٤٢٤هـ-بيروت.
- ٦- حقائق الإيمان الشهيد الثاني: زين الدين بن علي بن أحمد العاملي(ت ٩٦٦هـ) تحقيق: مهدي الرجائي مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة - ط١- ١٤٠٩هـ- قم.



- ٧- الاعتقادات، في دين الإمامية الصدوق: محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت ٣٨١هـ). تحقيق: عصام عبد السيد دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ط٢- ١٤١٤هـ- بيروت.
- ٨- التوحيد، للصدوق (نفسه) تحقيق: هاشم الحسيني الطهراني ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.
- ٩- كمال الدين وتمام النعمة ، للصدوق (نفسه) تحقيق: علي أكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين-١٤٠٥هـ - قم.
- ١٠- المعجم الصغير الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ). دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١١- الاحتجاج الطبرسي: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب(ت-٥هـ) تحقيق: محمد باقر الخراسان دار النعمان-١٣٨٦هـ - النجف الأشرف .
- ١٢- رجال الطوسي الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ). تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين-ط١-١٤١٥هـ-قم.
- ١٣- الفهرست الطوسي: محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ). تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني مؤسسة نشر الفقاهة-ط١-١٤١٧هـ.
- ١٤- مسند الإمام الكاظم عليه السلام عزيز الله العطاردي دار الصفوة، الطبعة الثانية- بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٥-إيضاح الاشتباه العلامة الحلي: الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ). تحقيق: محمد الحسون مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين- ط١- ١٤١١هـ- قم.
- ١٦- الكافي الكليني: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩هـ). تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. منشورات: دار الكتب الإسلامية-ط١ - طهران.
- ١٧- مجلة تراثنا -السنة الأولى- ١٤- ١٤٠٥هـ مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم. قرص مدمج (مكتبة أهل البيت عليهم السلام)
- ١٨- كنز العمال: في سنن الأقوال والأفعال المتقي الهندي: علي بن حسام الدين البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ). تحقيق بكرى حياني و صفوة السقا. مؤسسة الرسالة- ١٤٠٩هـ-بيروت.



١٩- الميزان محمد حسين الطباطبائي: محمد حسين الطباطبائي الحسني (١٤١٢هـ) منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.

٢٠- الإمام موسى بن جعفر، ضحية الإرهاب السياسي محمد حسين علي الصغير (الدكتور) مؤسسة البلاغ- ط١- ١٤٢٦هـ - بيروت.

٢١- رجال النجاشي النجاشي أحمد بن علي بن أحمد بن العباس (ت ٤٥٠هـ). تحقيق: مؤسسة الشبري الزنجاني. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين- ط٧- ١٤٢٤هـ- قم.

